ميزات الديمقراطية الأمريكية

للأستاذ س. م.

دخلت الولايات المتحدة فى غمار هذه الحرب دخولها الرسمى بعد أن دخلتها فعليا منذ سنتين تقريبا حين كانت تجهز الأمم الديمقراطية المتحاربة بالعتاد والمؤونة . وبدخول الولايات المتحدة أصبحت الحرب بين قارات بعد أن كانت بين أقطار . فان القارة الأمريكية كلها ستحارب الدول الفاشستية . وقد كانت الولايات المتحدة من القوة والضخامة وعظم الموارد ووفرة الثروة وملايين السكان بحيث كنا وما زلنا نطلق عليها اسم " أمريكا " فنقول الحكومة الأمريكية ونعنى حكومة الولايات المتحدة .

والواقع أن ثروة الولايات المتحدة تتجاوز الخيال. ذلك أن مواردها من الحديد والقطن والبترول والقمح يزيد بعضها على ما فى سائر العالم كله، ومصنوعاتها تعد بأرقام فلكية لا تخطر ببال أمة أخرى . وحسبنا أن نذكر أن على هذه الكرة الأرضية بقاراتها الخمس ٣٦ مليون أتومبيل منها نحو ثمانية وعشرين مليون أتومبيل فى الولايات المتحدة وحدها . وهذه الصناعة هى مقياس نستطيع أن نقيس به سائر المصنوعات والمحصولات .

على أن هذه الكنوز الطبيعية ليست كل شئ فى الولايات المتحدة الأمريكية ، لأن هناك كنوزا روحية وأخلاقية تمتاز بها هذه الأمة وتجعلها — بالمقارنة إلى الأمم الأخرى — على ربوة عالية من الحضارة والثقافة معا ، بل لولا هذه الميزات الروحية والأخلاقية لما أمكن الانتفاع بتلك الكنوز الطبيعية ، فقد سبق الأمريكيون — سكان أمريكا الأصليون — الأمريكيين وعاشوا آلاف السنين فلم يستطيعوا استغلال كنوز أرضهم ولم يعرفوا قيمة للقطن والبترول والحديد ، وهذا يدلنا على أن أعظم كنز من كنوز الثروة لأى أمة كانت إنما هو أبناؤها وما يحملون فى قلوبهم ورءوسهم من صفات الشجاعة والإقدام وميزات الثقافة والابتكار .

وتاريخ الولايات المتحدة هو تاريخ الجهاد للحرية . فقد افتتحت أول صفحة من هذا التاريخ بما يسمى " إعلان الاستقلال " الذى نشره على العالم سنة ١٧٧٦ وكان الكتاب المقدس الذى شهره الأمريكيون لتحقيق استقلالهم وهو إلى اليوم عيدهم الوطنى فى ٤ يوليه من كل عام . وقد نص هذا الإعلان على " أن جميع الناس قد خلقوا متساوين . وأن لهم الحق فى العيش والحرية وطلب السعادة ، وأنه لأجل تحقيق هذه الغايات قد أنشئت الحكومات التى تستمد قوتها من المحكومين . وأنه عندما تفسد الحكومة هذه الأغراض يصبح من حق الشعب أن يغيرها . " .

هذه الكلمات الذهبية هى شهادة الميلاد لشعب الولايات المتحدة . وعند ما ينتخب رئيس هذه الجمهورية الكبرى تعلن هذه الوثيقة بالخط الثلث لكى يقرأها الصبى القاصر قبل الرجل الراشد وعلى أساسها تجرى الانتخابات كل أربع سنوات للرياسة .

وكلمة "الحرية" من الكلمات المأنوسة المحببة فى كل أمة ولكن الأمم تختلف فى ممارستها . والأمريكيون هم أعظم الأمم ممارسة لها فإنهم لا يعرفون الألقاب . فليس عندهم "كونت" أو "دوق" . وهم بالطبع يختلفون فى الثروة ولكن هذا الاختلاف لا يجلب معه أى ميزة رسمية . فليس عندهم لهذا السبب "طبقات" بالمعنى الذى نجده فى أقطار اوربا .

والنظام الديمقراطى فى كل أمة ينص على الحرية والمساواة . ولكن قليلا من التأمل يبين لنا التناقض بينهما وأنهما لا يمكن أن يجتمعا فى مباراة اقتصادية . لأنه حيث تكون الحرية يكون التفاوت فى جمع الثروات غير متوقف على التفاوت فى الكفاءات الشخصية والمهارة والأخلاق فحسب ، بل من ناحية الاختلاف فى الفرص كذلك . ولهذا يناقض مبدأ الحرية مبدأ المساواة . وجميع الأمم الديمقراطية تعالج هذا التناقض بضروب من العلاجات نعرفها باسم "التأمينات الاجتماعية" .

وكلنا يعرف مثلا اسم فورد فانه اصطدم بحكومة لولايات المتحدة فى الأعوام الأخيرة الماضية . ذلك أنه بحكم الحرية التى تمتاز بها أمته قد جمع ملايين اجنيهات من مصانعه الكثيرة ، وكان حرا فى جمعها . ولكن هذه الحرية نفسها جعلته يعيش فى غير مساواة بينه وبين الملايين من أبناء الفقراء ؛ وكان كل شىء يجرى على ما يهوى فورد وعلى ما ترتضيه الديمقراطية إلى سنة ١٩٣٠ حين أخذ التوسع الصناعى يتقلص ويقع العمال منه فى تعطل . وعندئذ تدخلت الحكومة ووضعت قانونا يجعل النقابات شرعية . فاستمسك فورد بالحرية يريد تعيين العمال وإخراجهم كما يشاء ويعاقب من ينضوى منهم إلى نقابة ، لأنه يعتقد فى فرط إيمانه بالحرية أو فى علو إيمانه بالحرية أنه يجب أن يكون مطلقا فى اختياره لعماله وتعيين أجورهم وساعات عملهم . وقد حكم عليه بالغرامة لهذا السلوك . فما هو المغزى هذا الحادث؟

المغزى أن المجتمع الديمقراطى هو الآن فى مأزق بين نصى الحرية والمساواة اللذين يؤمن بهما وبين ما أدت اليه الحرية فى المباراة الاقتصادية من انتفاء المساواة . فالحكومة الديمقراطية مضطرة إلى الحد من حرية المباراة الاقتصادية حتى تحقق المساواة أو ما يقرب منها فى "طلب السعادة" كما ينص على ذلك "إعلان الاستقلال" الذى يحتفل الأمريكيون به يوم ٤ يوليه من كل عام .

ومن هنا كانت القوانين الكثيرة التى أصدرها روزفيلت لحماية العاطلين وإيجاد أنواع التأمين المختلفة ؛ وهى ما اتهم عليها من خصومه بالاشتراكية أو الشيوعية ، مع أن ما قام به روزفيلت هو الذى وقى الأمريكيين من الاندفاع نحو آراء اليسار . والأمريكيون عامة لا يزالون

فى استمساكهم بالحرية يتعامون عن الظروف الجديدة التى طرأت على المجتمع من التقدم الآلى الصناعى . ولذلك لاتزال كثرتهم — من غير المتعطلين بالطبع — تنظر إلى قوانين الإسعاف التى أصدرها روزفيلت بغير عين الرضى ، وقصاراها أنها ترى فيها شرا لازما تود لو أن المستقبل يغنى عنها . والواقع أن الأمريكيين يستمسكون بحريتهم فى حرص وغيرة وغلو. وقد حاربوا حربا أهلية مدمرة من أجل حرية "الزوج" أوشكوا أن ينشقوا فيها أمتين. وهم لهذا أبعد الأمم عن التفكير فى الفاشية أو النازية. وقد أعجب كثير من الشعوب بهذه الآراء بل العقائد الجديدة وأسسوا الأحزاب أو الجماعات للدعاية لها إلا فى أمريكا فانها لاتجد هناك غير الاستهزاء أو المقت .

والحرية فى الولايات المتحدة تعنى أشياء كثيرة . منها ألا تتدخل الحكومة فى شؤون الفرد مهما يكن تصرفه إلا إذا أدى هذا التصرف إلى الإضرار بغيره . ولذلك ينظر الشعب إلى الموظف المتدخل نظرة الريبة والتوجس وسرعان ما تتضخم الحبة فتصير قبة فترجف الصحف ويرعد الخطباء اذا أخطأ الموظف ، بل كذلك يجب ألا تتدخل الحكومة المركزية فى واشنطون فى استقلال الولايات الثمانى والأربعين . والحرية أيضا تسود البيت ، فان سلطة الآباء أو الأزواج هى سلطة أفلاطونية . وفلسفة الحرية هناك تقول إنها أى الحرية هى الأساس للمسئولية التى تتكون بها الشخصية وتنمو وتترقى . وهذا حق لاغبار عليه ؛ ومن يتأمل شابا أو فتاة أمريكية يجد لهما من الشخصية مالا يجد نظيره فى أى أمة أخرى . ذلك أن الطفل ينشأ حرا فى البيت يتعلم بالخطأ أكثر مما يتعلم بالوعظ ، لأن أبويه يتركانه حرا يخطئ و يصيب و يتصرف فى مصروفه لأسبوعى أوالشهرى و يصادق من يشاء ويدعو إلى البيت أصدقاءه ويحترف مايحب ولو على سبيل المرانة . وقد أثمر هذا الاعتقاد فى الحرية ثمرة واضحة فى شخصية المرأة الأمريكية التى يمكن أن تكون كاهنة فى الكنيسة أو مضاربة فى البورصة أو صحفية أو مؤلفة أو طيارة أو تاجرة . و بالطبع قد كان لهذه أثر فى الروابط العائلية التى لم يعد لها ذلك التماسك القديم .

قرأت من مدة قريبة قصة إحدى الأمريكيات التى أقامت جملة سنوات فى إيطاليا . ثم انتقلت مع زوجها إلى أمريكا . فقد كانت تقطن فى إيطاليا قصرا حوله حديقة عطرة بأزهارها نضرة بأعشابها . وكان عندها ثلاثة من الخدم يستقبلونها و يحيونها كأنها أميرة أو نبيلة . وكانت الغرف رحبة عالية تحتاج إلى كثير من الأثاث الذى يحتاج هو أيضا إلى كثير من الخدم للعناية به . فلما انتقلت إلى أمريكا وجدت " شقة " فى مبنى ضخم يحوى نحو مئة شقة أخرى ، ولكن الجدران كانت حافلة بالخزانات والكراسى وكان المطبخ مجموعة من المخترعات العلمية التى تؤدى المهام المختلفة من تبريد وتسخين وطبخ . وكان التلفون يؤدى مايؤديه جملة من الخدم .

وبعد أن عددت هذه السيدة وجوه الاختلاف بين الوسط الديمقراطى فى أمريكا والوسط الأرستقراطى فى إيطاليا اعترفت بأنها تؤثر الوسط الأمريكى الديمقراطى . وهذا هو ما ينتهى إليه الذهن الجدى الذى يحتقر القشور والترويق ويحب أن يصل إلى الجوهر والصميم .

وليست الديمقراطيات سواء فى المزاج أو الاتجاه أو الرقى الاجتماعى . فهناك مثلا فى أوربا ديمقراطيات محافظة وأخرى حرة . ولكن يمكن أن نقول على وجه عام إن الديمقراطية الأمريكية تمتاز بالحرية والرغبة فى التغير أو قبول التغير والرضى بالاختراع الجديد — آليا كان أم اجتماعيا — فان الجمهور لا يعارض الفكرة الجديدة ، وأصبحت هذه الحال مزاجا عاما فى الأمة الأمريكية . ونحن فى مصر نعرف الكثير من المخترعات الآلية الأمريكية من ماكينة سنجر للخياطة إلى أتومبيل فورد إلى مصباح ديسون الكهربائى إلى فنوغرافه إلى أجهزة تكييف الهواء إلى غير ذلك .

ولكننا نجهل المخترعات الاجتماعية الكثيرة . وإلى الآن لم يوضع كتاب مستقل فى اللغة العربية عن الإجراءات الاقتصادية التى قام بها روزفيلت لمعالجة التعطل منذ سنة ١٩٣٢ مع أنها تستحق جملة مؤلفات فى لغتنا لكى نعرف كيف تستجيب الأمة الحية للأزمات بالإسراع إلى الاختراع الاجتماعى ، بل كذلك التجارب الكثيرة فى التعليم التى يقوم بها الأمريكيون والتى أحدثت انقلابا فى البرامج بل فى الفلسفة التعليمية . وكلمات الأستاذ ديوى مثل قوله " يجب أن نتعلم بالعمل " أو " المدرسة جنين المجتمع " قد أصبحت من الحكم التى ستعيش على مدى القرون . ومشروعات الخيام للطلبة الجامعيين بل للصبيان لا تقل فى قيمتها الاجتماعية عن حركة الكشف بل قد يكون أثرها أكبر فى المستقبل . وحين نسمع أن رجلا مثل جان فالتن قد تسلم شهادته الجامعية من السجن بدلا من أن يتسلم شهادة السوابق ، يجب أن نقف ونفكر فى هذه الحرية الديمقراطية التى استفاضت فجعلت الشعب يخترع الاختراع الاجتماعى بنفس الهمة والتفاؤل اللذين يخترع بهما الاختراع الآلى ، وأولئك الذين يخشون استفاضة الحرية بين الشعب ويعتقدون أن الغلو فى الحرية يؤدى إلى الاستهتار يجب أن يقرأوا تاريخ الولايات المتحدة منذ ميلادها سنة ١٧٧٦ وأن يدرسوا تلك الشخصيات الإنسانية العالية التى أثمرتها الحرية فى رؤساء حكومتها من واشنطون إلى لنكولن إلى جيفرسون إلى ولسون إلى روزفيلت . فإن كل واحد من هؤلاء هو طراز راق يبرز عالما واضحا للفضيلة والشرف فى التاريخ البشرى . ولم يحدث أن أثمرت هذه الحرية طاغية . ومثال الجلد والرزانة الذى نراه فى المرأة الأمريكية برهان على أن الحرية ليست أساس الحكم الصالح فقط ، بل أساس المجتمع الصالح أيضا .

س . م